٥ – محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

قد يذهب بكم الظن أني إنما أتحداكم بهذا كما فعلت حينما حدثتكم عن الضراعة والبكاء ، كلا فليس الأمر كذلك ، إنما أقول هذا لأنني أعتقد أني لم أسيء الى أحد عامداً ، ولا أظنني قادراً على إقناعكم بذلك في هذا الحوار القصير ، فلو كان في أثينا قانون — كما هي الحال في سائر المدن — لا يبيح حكم الأعدام في يوم واحد ، لاستطعت فيما أعتقد أن أقنعكم ، أما الآن فالفترة وجيزة ، ولا يمكنني أن أدحض في لحظة هؤلاء المدعين الفحول ، وإن كنت كما ظننت لم أسيء الى أحد فلن أتقدم بالأساءة الى نفسي قطعاً . وإذن فلن أعترف بنفسي بأني حقيق بالسوء ، ولن أقترح عقوبة ما . ولماذا أفعل ؟ أخوفاً من الموت الذي يقترحه مليتس ؟ على حين أني لا أعلم إن كان الموت خيراً أم شراً ! لماذا أقترح عقاباً فيكون شراً مؤكداً لامفر منه ؟ أأقترح السجن ؟ ولماذا أزج في غياهبه فأكون عبداً لحكام هذا العام — أعني الأحد عشر ؟ أم أقترح أن أعاقب بالتغريم ، وأن أسجن حتى تدفع الغرامة ؟ فالاعتراض بنفسه قائم ، لأنني لابد أن ألبث في السجن لأنني لا أملك مالاً ولا أستطيع دفعاً . وإن قلت النفي (وربما قر رأيكم على هذه العقوبة) وجب أن يكون حب الحياة قد أعمى بصيرتي ، لأنكم وأنتم بنو وطني لا تطيقون رؤيتي ولا تسيغون كلامي ، لأنه في رأيكم خطر ذميم ، فوددتم لو نجوتم من شري عسى أن يطيقه سواكم ، فما حياتي في هذه السن ، ضارباً من مدينة الى مدينة ، مشرداً أبداً ، طريداً دائماً ، يلفظني البلد في إثر البلد ، فما أرتاب في التفاف الشبان حولي أينما حللت كما فعلوا هنا ، فلو نفيتهم رغبوا الى أوليائهم في طردي فاستجابوا لرجائهم ، ولو تركتهم يسعون الى طردي آباؤهم وأصدقاؤهم صوناً لأنفسهم

رب قائل يقول : نعم ياسقراط ، ولكن ألا تستطيع أن تمسك لسانك حتى اذا ارتحلت الى مدينة أخرى ما اشتبك انسان معك ؟ وعسير جداً أن أفهمكم جوابي عن هذا السؤال ، فلو أنبأتكم أني لو فعلت ذلك لكان عصياناً مني لأمر الله ، ولذلك لا أملك حبساً للساني ، لما صدقتم أن يكون جدا ما أقول . ولو قلت بعد ذلك إن أعظم ما يأتيه الانسان من خير هو أن يحاور كل يوم في الفضيلة وما يتصل بها مما سمعتموني أسائل فيه نفسي وأسائل الناس ، وإن الحياة التي تخلو من امتحان النفس ليست جديرة بالبقاء ، كنتم لهذا أشد تكذيباً ، ولكني لا أقول إلا حقاً وإن عز علي إقناعكم بصدقه . إني لم أعهد نفسي جارمة تستأهل العقاب ، ومع ذلك فلو كان لدي مال لاقترحت أن أعطيكم ما أملك ، ولم يكن ذلك ليضيرني في شيء ، ولكنكم ترون أني لا أملك مالاً ، لا بل أظنني قادراً على دفع مينة واحدة (المينة تساوي مائة دراخمة) ولذا أقترح هذه المقوبة . إن أصدقائي : أفلاطون ، وكريتون ، وكريتوبولس ، وابولودورس ، وهم بين الحاضرين ، يرجون مني أن أقول ثلاثين مينة ، يضمنون هم دفعها ؛ حسناً ، إذن فاحكموا بثلاثين مينة ، ولتكن هي عقوبتي ، وأحسب هؤلاء كفلاء بدفعها

أيها الأثينيون ! لن تفيدوا بقتلي إلا أمداً قصيراً ، وستدفعون له ثمناً ما تنطلق به ألسنة السوء تذيع عن المدينة العار . ستقول عنكم إنكم قتلتم سقراط الحكيم ، فسيدعونني وتتنذ بالحكيم وإن لم أكن حكيماً تقريعاً لكم . ولو صبرتم قليلاً لظفرتم بما تبتغون بطريق طبيعية ، فلقد طعنت في السن كما ترون ، ودنوت من أجلي . إنما أسوق هذا الحديث الى هؤلاء الذين حكموا علي بالموت ، وأحب أن أضيف اليهم كلمة أخرى : قد تحسبون أن أنهاي جاء نتيجة لعي لساني ، فلو قد آثرت أن أفعل كل شيء وأن أقول كل شيء ، لجاز لي أن أظفر بعفوكم ، ولكني لم أفعل ذلك ، فليس عيا في لساني ما أدى الى إدانتي ، ولكنه ترفعي عن القحة والصفاقة ، وصدوفي عن مخاطبتكم بما كنتم تحبونني أن أخاطبكم به : بالعويل والبكاء والرثاء ، وأن أقول وأفعل كثيراً مما تعودتم استماعه من الناس ، وهو لا يجمل بي كما ذكرت ، فقد رأيت واجبي ألا أتبذل في العمل ، أو أسف في ساعة الخطر ، ولست آسف على ما سلكت من طريق الدفاع ، فاني لأوثر

خطتي التي رسمتها ولو أدت بي الى الموت ، على أن أصطنع خطتكم احتفاظاً بالحياة . فلا يجوز لانسان في ساحة الوغى أو أمام القانون أن يلتمس أي سبيل فراراً من الموت ؛ فلو ألقى المحارب بسلاحه في المعمعة ، وجثا على ركبتيه أمام مطارديه لظفر غالباً بالنجاة من الموت . ولكل ضرب من ضروب الخطر طرق للنجاة من المهالك ، اذا لم يتعفف المرء عن كل قول وكل عمل مهما يكن شائناً . فليس عسيراً أيها الأصدقاء أن نفر من وجه الموت ، ولكن العسر كل العسر في تجنب الأخلاق الفاسدة . فالفساد والموت يعدوان في أعقابنا ، ولكن الفساد أسرع من الموت عدواً . فأنا الذي اكتهلت ، إنما أسير سيراً وئيداً ، فيكاد يدركني أبطأ العادين ، أما المدعون فسراع متحمسون ، وسيلحق بهم أبرعهما — أعني الفساد . وبعد ، فسأترك موقفي هذا ، وقد جرى على قضاؤكم بالموت ، وكذلك هم سينطلقون كل الى سبيله ، وقد قال فيهم الحق كلمته ، بأن يمانوا ما هم فيه من ضعة ، ولابد لي أن أخضع لما حكم علي به ، وعليهم كذلك أن يرضوا بما كتب لهم . أحسب أن قد جرى القدر بهذا جميعاً ، فمني أن يكون خيراً ، ولا أحسبه إلا كذلك

وبعد ، فيا هؤلاء الذين أجروا على قضاءهم ، ها كم نبوءتي التي أحب أن أبلغكم إياها ، لأني مشرف على الموت ، وتلك ساعة يوهب فيها المرء مقدرة على التنبؤ . أتنبأ لكم يا قاتلي بأنه لن يكاد ينفذ حكم الموت حتى ينزل بكم ما هو أشد من ذلك هولاً . لقد حكمتم بموتي ، لأنكم أردتم أن تفلتوا من ذاك الذي يتهمكم ، ولكيلا تحاسبوا على ما قدمت أيديكم ، ولكن لن يكون لكم ما ترجون ، بل نقيضه . فسيكون متهموكم أوفر عدداً منهم اليوم ، اذ سيهب في وجوهكم من كنت مسكتهم حتى الآن ، وسيكون أولئك أشد قسوة عليكم لأنهم دونكم سناً ، وسيذيقونكم من العذاب أكثر مما تذوقون اليوم ، فان حسبتم أنكم خالصون من متهمكم بقتله ، كي لا ينغص عليكم عيشكم ، فأنتم مخطئون ؛ إذ ليست تلك سبيلاً مؤدية الى الفرار ، ولا هي مما يشرفكم ، وأيسر من ذلك وأشرف ألا تهاجموا الناس ، بل تبادروا باصلاح أنفسكم . تلك هي نبوءتي التي أبلغها الى القضاة الذين حكموا علي ، قبل رحيلي

وأنتم أيها الأصدقاء الذين سعوا الى براءتي ، أحب كذلك أن أتحدث اليكم عما وقع ، عند ما يشغل الرؤساء ، وقبل أن أذهب الى مكان مدتي ، فالبثوا قليلاً ، لأننا نستطيع أن يتحدث بعضنا إلى بعض ما دامت هناك فسحة من وقت . أنتم أصدقائي ، وأحب أن أدلكم على معنى هذا الذي وقع . يا قضاتي — فأنا أدعوكم قضاة بحق — أحب أن أحدثكم بأمر عجيب ، لقد كانت مشيرتي حتى الآن ، تلك المشيرة التي عهدتها في دخيلتي ، لا تفتأ تردني في توافه الأمور ، إن كنت مقدماً على زلل أو خطأ في أي شيء ، والآن — كما ترون — قد داهمني ما يحسبه إجماع الناس أقصى الشرور وأقساها ، ولم تلوح لي مشيرتي بعلامة المعارضة حينما تركت داري في الصباح ، ولا حين كنت أصعد إلى هذه المحكمة ، ولا حين ألقيت كل ما اعتزمت أن أقوله ، ومع أني عورضت كثيراً أثناء الحديث ، إلا أن المشيرة لم تعارضني في كل ما قلت أو فعلت مما يتصل بهذا الأمر ، فبم أعلل هذا ، وكيف أفهمه ؟ سأخبركم : إني أعد هذا دليلاً على أن ما حدث لي هو الخير ، ويخطئ من يظن منا أن الموت شر . هذا دليل ناهض على ما أقول ؛ لأن الاشارة التي عهدتها لم تكن لتتردد في معارضتي لو كنت مقبلاً على الشر دون الخير

لنقلب النظر في الأمر ، وسنرى أن ثمت بارقة قوية من الأمل تبشر بأن الموت خير . فاحدى اثنتين : إما أن يكون الموت عدماً وغيبوبة تامة ، وإما أن يكون كما يروى عنه الناس تغيراً وانتقالاً للنفس من هذا العالم الى عالم آخر . فلو فرضتم فيه انعدام الشعور ، وأنه كرقدة النائم الذي لا تزعجه حتى أشباح الرؤوس ، فيا للموت نفع لا نزاع فيه ، لأنه لو أتيح لانسان أن يقضي ليلة لا يزعج نعاسه فيها شيء ، حتى ولا أحلامه ، ثم قارنها بما سلف في حياته من ليال وأيام ، وسئل بعد ذلك : كم يوماً وليلة قضاها بين أعوامه وكانت أبهج من تلك الليلة وأسعد ؟ فلا أحسب أحداً — ولا أختص بالقول أحداً — بل لن يجد حتى أعظم الملوك بين أيامه ولياليه كثيراً من أشباهها . فاذا كان الموت كهذا فأنعم به ، وليس الخلود إذن إلا ليلة واحدة ! أما إن كان الموت ارتحالاً الى مكان آخر ، حيث يستقر الموتى جميعاً كما يقال ، فأي خير يمكن أن يكون أعظم من هذا أيها الأصدقاء والقضاة ! وإذا كان حقاً

أنه اذا بلغ الراحل ذلك العالم السفلى ، خلص من أساطين العدل فى هذا العالم ، وألفى قضاة بمعنى الكلمة الصحيح ، إذ يقال إن القضاء هناك فى أيدى مينوس ، ورادا منتوس ، وايكوس ، وتريتولموس وسائر أبناء الله الذين عمروا حياتهم بأقوم الأخلاق ، فما أحب إلى النفس ذاك الارتحال ! وهل يضن الرجل بشىء اذا أتيح له أن يتكلم مع أورفيوس ، وموسيوس ، وهزيود ، وهوميروس ؟ كلا ، لو كان هذا حقاً فذرونى أمت مرة ومرة ، فسأصادف متاعاً رائعاً فى مكان أستطيع فيه أن أتحدث الى بالاميدس ، وأجاكس بن تلامون ، وغيرهم من الأبطال القدامى الذين تجرعوا المنون بسبب قضاء ظالم ، ولا أظنني حين أقارن الآن آلامى بآلامهم إلا مغتبطا مسروراً . وفوق كل هذا فسأتمكن من استئناف بحثى فى المعرفة الحق ، والمعرفة الزائفة ، وكما فعلت هنا سأفعل فى العالم الثانى ، وسأكشف عن الحكيم الصحيح ، وعمن يدعى الحكمة باطلاً . بماذا يضن الرجل أيها القضاة اذا أتيح له أن يمتحن قائد الحملة الطروادية الكبرى أو أوذيس ، أو سسفوس وغير هؤلاء ممن لا يقعون تحت الحصر رجالاً ونساء ؟ ألا ما أعظمها غبطة لا تحد ، تلك التى أجدها فى نقاشهم ومحاورتهم ، لأنهم فى ذلك العالم لن يقضوا على أحد بالموت من أجل هذا . كلا ولا ريب ، هذا فضلاً عما يصادفه الناس فى ذلك العالم من سعادة عزت على هذه الدنيا ، فان صح ما يقال فهم ثمت خالدون

فابتسموا إذن للموت أيها القضاة ، واعلموا علم اليقين أنه يستحيل على الرجل الصالح أن يصاب بسوء ، لا فى حياته ولا بعد موته ، فلن تهمله الآلهة ، ولن تهمل ما يتصل به ، كلا ، وليست ساعتى الآزفة قد جاءت بها المصادفة العمياء ، فلست أرتاب فى أن الموت مع الحرية خير لى ، ولذلك لم تشر مشيرتى بشىء

ولست لهذا غاضباً من المدعين ، أو ممن حكموا علىّ ، فما نالتنى منهم إساءة ، ولو أن أحداً منهم لم يقصد إلى أن يعمل معى خيراً ، وقد أعاتبهم لهذا عتاباً رقيقاً

وإن لى عندهم لرجاء . فأنا ألتمس أيها الأصدقاء ، إذا ما شب أبنائى ، أن تنزلوا بهم العقاب ، وأحب أن تؤذوهم كما آذيتكم ، وذلك إن بدا منهم اهتمام بالثروة ، أو بأى شىء أكثر مما يهتمون بالفضيلة ، أو إذا هم ادعوا أنهم شىء ، وكانوا فى حقيقة الأمر لا شىء . إذن فأنحوا عليهم باللائمة كما فعلت معكم ، لأهمالهم ما ينبغى أن يبذلوا فيه عنايتهم ، ولظنهم أنهم شىء على حين أنهم فى الواقع لا شىء . فاذا فعلتم هذا ، أكون قد نالنى ونال أبنائى العدل على أيديكم .

لقد أزفت ساعة الرحيل ، وسينصرف كل منا إلى سبيله — فأنا إلى الموت ، وأنتم إلى الحياة ، والله وحده عليم بأيهما خير

(يتبع) زكى نجيب محمود

سهم
شركة مصر للغزل والنسيج
شهادة
بمصريتك ووطنيتك
ساهم فيها تساهم فى مجد بلادك
الاكتتاب ببنك مصر وفروعه
لغاية آخر الشهر الحالى